الإبن الشاطر

بقلم المعلم الانطاكي الشماس

اسبيرو جبور

مَثَلُ الإبن الشاطر هو من الأمثلة الرائعة في الأناجيل. والمثَل نوعٌ أدبيٌّ لدى الآراميّين والعبرانيّين والمهم في هذا المثَل هو العِبرة النهائية. فلذلك لا يُفَسِّر بحذافيره، يُفسَّر بالنسبة للعِبرة المستفادَة منه.

الولد الأصغر، طلبَ من أبيه قِسمةَ الميراث وإعطاءَه حصّته، فقسم الميراث بينه وبين أخيه. حقوقياً، الميراث لا يُوزّع في حياة الأب، يُوزّع بعد وفاة الأب ولكن لضرورات المثَل، قيل هذا. أخذ أموالَه الطائلة وذهب الى بلدٍ بعيد. إبتعدَ عن أبيه كثيراً و لم يعُد يعيش تحت أنظار أبيه ومراقبتِه وتوجيهاته. بذَّر أمواله هناك في الخلاعة ولذلك فهو إبنٌ خليع. أسلَمَ ذاته الى الشهوات الجسديّة من طعام وشراب وخلاعة عامة، وبذّر أموالَه على الساقطات والولائم حتى أفلَسَ نهائياً و لم يبقَ معه شيئٌ من المال، فذهبَ ماله هدراً أدراجَ الرياح. وقعت مجاعةٌ في تلك المنطقة وجاع فوضَع نفسَه في خدمةِ إنسانٍ قاسٍ كلّفَه رعاية الخنازير. كان يشتهي أن يملأ بطنَه من الخرّوب التي تأكله الخنازير فلم يُفلح. وضعَ نفسَه تحت إمرة الشيطان فسلّمَه الشيطان الى الخنازير النجسة. في المفهوم اليهودي سلّمه الى الأفكار النجسة، الى الأعمال النجسة، الى الشهوات النجسة، الى رعاية كلُّ ما هو نجِس حتى هلِكَ جوعاً وهذه هي نهاية كلُّ الذين يستسلمون الى الشيطان والى الشهوات الجسَدية. فالشهوات الجسَدية ذات حدود. تُرهق الجسد ويُفنى الجسد بعد حين، ويُصبح عاجزاً. سألَتني فرنسيّة مرةً لماذا تنتهي بعض الفنانات الكبيرات في الدير؟ أجبتُها لأنهنّ مَلَلنَ حياة الجسد ونفاق الرجال فوجَدنَ أنفسَهنّ في فراغٍ كبير ولذلك هربنَ من الرجال ومن العالم ومن الشهوات الى الدير ليُلاقينَ هناك الله الذي وحدَه يملأُ كلّ فراغٍ في الإنسان. في النهاية، الأمور الجسدية هي إرهاقٌ وفناءُ العمر باطلاً. من طبيعة العادات الرديئة التَكرار. تُقيمُ هذه العادات في الجسمِ حكّةً، يُعيدُها المرءُ مرةً تلوَ المرّة فيَصِل الى الفراغ. يأكل ويشرب بدون نظام. ما وراء ذلك؟ كلّ يومٍ يُكرِّر العملية نفسَها: خمور وطعام، خمور وطعام. وقال بولس الرسول الطعام لا يقرّبنا الى الله ولا يزيدُنا ولا يُنقصُنا، ونبقى حيث نحن إنما يزيد الوزن فيصير الإنسان مرهقاً. إن هناك نساءً ورجالاً مولَعين بالطعام وآخرين مولَعين بالشراب. ماذا جَنَوا من كلِّ ذلك؟ السكارى في البلدان الكُبرى يقضون العمر في السُكر وينامون على أرصفة الشوارع. هؤلاء يعيشون البؤس الحقيقي، هم غائبون عن الوجود وليسوا موجودين حقيقةً. يفضّلون الكحول على الطعام. هؤلاء يقضون العمر وهم خارج حَلَبة الحياة، يعيشون بلا فكر، بلا عقل، بلا رويَّة، بلا مخطّط للحياة، بدون روحانية. غائبون عن الوجود الحقيقي كأنهم حيوانات في البراري، طمَسوا الروح، طمَسوا الفكر، طَمَسوا الحياة، طَمَسوا الوجود وعاشوا كالبهائم. هذا الواقع المرّ عجيب غريب.

التخمة تخرّب الصحة وتجعل الإنسان تنبلاً عاجزاً عن الحركة والإنتاج وتولّد مشاكل صحية. أما الخلاعة فهي تفني الجسد شيئاً فشيئاً فيقع الرجل في العجز وتُصبح المرأة دماراً تدَمِّر نفسَها، ولذلك خرج البعضُ من هذه الجحيم وتاب. سيرة مريم المصرية معروفة، كيف كفرَت بالجسد وقضَت على ما يُقال سبعة وأربعين سنة تعيش في البرية قانعةً لربّها ناسكةً، قضَتها في التوبة والندامة وانتقلت الى السماء. تاريخ الكنيسة يعرف التائبين كيف تحوَّلوا الى قديسين. الإستسلام الى الجسد هو إنتحارٌ روحيٌّ. ينتحر الإنسان روحياً فضلاً عن إنتحاره جسدياً شيئاً فشيئاً. في العلوم النفسية عاهةٌ تُسمّى الهوَس، والهوَس يستوعب الإنسان فيصرف الإنسان كلَّ طاقاتِه في هوَسه. الذين

يتعاطون المخدرات والخمور يُسمِّمون أنفُسَهم وتُطلَق عليهم لفظة يونانية toxicomania ويوجد أناسٌ مولعون بالكتب ايضاً ونطلق عليهم كلمة bibliomania والمفرطون في الجنس يُطلق عليهم لفظ heretomania.

هذا الهوَس يجرف الإنسان برُمَّته فيخسر السلطة على ذاته. المقامرون مهووسون ايضاً. لذلك يصل المقامر الى حالاتٍ غريبة وقد يُضيع كل ثروته. ينتحر الإنسان معنوياً في كل هذه المسائل، في كل ألوان الهَوس الفاسدة، فتنتهي بالإنسان الى دمارِه شخصياً والى إنصرافه عن الله فيخسر الآخرة ويعيش في الدنيا عيشاً ذميماً دون عيش الكلاب.

الإبن الشاطر كان يشتهي أن يأكل الخروب الذي كانت تأكله الخنازير والتي كانت في وضعٍ أفضل من وضعِه. نرى مَثَل آخر في إنجيل لوقا ايضاً وهو مثَل الغني الذي لم يشفق على لعازر بينما أشفَقت عليه الكلاب فلَحست قروحَه. فكانت الكلاب أرحم من الغني. ولذلك ذهب الغني الى العذاب وذهب لعازر الى السعادة. هذا امرٌ واضح في الإنجيل. الإنسان الذي يترل الى مستوى هذا الخليع ينحدر الى مستوى هو دون الكلاب والخنازير، دون مستوى الحيوانات.

ما هذا المصير القاتم؟ إنحدار الإنسان الى هذا المستوى هو أمرٌ مخيفٌ جداً. ما مصير هؤلاء الذين صاروا دون مستوى الكلاب؟ مصيرُهم في جهنَّم لا سمح الله. ولكن ما الحلّ لهؤلاء الذين كما قال بولس الرسول "صَلبوا يسوع المسيح لذاتِهم" هؤلاء، هل يحظَون يوماً ما من رحمتِه في العالم الآخر؟ لا. رأينا الغني في العذاب، وهؤلاء ايضاً صائرون الى العذاب. ولذلك العذاب الأبدي ينتظر الخليعين، ينتظر كل الذين يعبُدون الجسد، ينتظر كل الذين يطعنون عبادة الله في الصميم ليعبُدوا أجسادهم وشهواتهم وأهواءهم. عبادة الجسد هي ضد الله. ونعرف من الكتاب المقدس أن محبة العالم هي عداوةٌ لله.

هذا الخليع الذي أحبَّ العالم صار عدواً لله، ومعاداة الله أمرٌ عسير. قال الرب يسوع لبولس "صعبٌ عليك أن ترفس مناخس" وقال الرب يسوع "مَن صدم الحجر خسِرَ فإن وقع الحجر عليه طَحَنَهُ طحناً وإن وقعَ هو على الحجر تكسَّر". بولس الرسول قال في العبرانيّين الفصل العاشر الآية 30 إن الوقوع بين يدَي الله هو أمرٌ هائل. الوقوع بين يدَي الله أمرٌ مخيف جداً جداً. على الإنسان أن ينتبه، فملذّات الأرض العابرة لا تُغني أبداً عن الملكوت السماوي. نَظُنُّ أننا ربِحنا الدنيا، ونكون في الحقيقة خسِرنا كلّ شيء. خلاعة هذا الولد الخليع هو جنون. خرج عن كل الحدود المعقولة، نَخَرَ الطبيعة البشرية في الصميم ولكن الهُنا رحيمٌ فلا يدَع الإنسان يهلَك بسهولة. لذلك تدارك الله هذا الأبن الخليع لما وصل الى نهاية المطاف في جهنَّم الأرض، فعاد الى ذاته وتذكر بيتَ أبيه، وكيف يَفضُل الطعام عن خَدَم أبيه وهو هنا يهلِك جوعاً، فقرَّر العودة الى أبيه. العودة الى أبيه هي الطريق السليم. الى أين يذهب عبّاد الأرض؟ الى الإنتحار. ولكن قد يرحم الله البعض كما سنرى، فيتوبون ويعودون الى الله. قام الرجل وانطلق الى ابيه. ما أن رآه أبوه عن بعيد حتى إستقبله بفرحٍ عظيم وانكبَّ عليه يقبّله بحرارة كبيرة ويستقبله إستقبالاً كبيراً، وأمرَ عبيدَه بذبح العجل المسمَّن والإتيان بالحلّة المميزة، فألبسوه الحلّة الفاخرة ووضعوا في يدِه خاتماً. لقد عاد تائباً. كان قد قال في غُربتِه أعود الى ابي وأقول له" خطأت الى السماء وامامك ولست بمستحقٍ أن أكون لكَ إبناً ". بادَرَهُ بهذه الكلمات فقبلَ توبتَه. عادَ نادماً، عاد مثل مريم المصرية كافراً بالجسد وملذات الجسد وعَيش الحيوانات البهيمية. عاش عيشاً أَردأ من عيش الخنازير أما الأن فقد عاد تائباً، وبالتوبة نعود الى الله والله يقبل توبَتنا. مهما إنحَدَرنا الى جهنم فالله يقبل توبتنا لأن محبَّته لنا تفوق كلّ وصفٍ، هو يبادر الينا قبل أن نصل اليه. متى خَطرَ لنا فِكرُ العودة، بادرَ هو بالعَون وتدارَكتنا نعمتُه الالهية لتجذُبنا اليه راكعين ساجدين خاضعين نادمين كافرين بالعيش السابق كافرين بالجسد وملذاته مهتدين إهتداءً كاملاً منقلبين إنقلاباً كاملاً منتقلين من ظلمة جهنَّم الى نور المسيح، فكم الفرق كبيرٌ بين نور المسيح وظلمة جهنَّم. بهذه الصورة ينتقل الإنسان الخليع من جهنَّم الى نور المسيح فيُشعُّ المسيح في قلبِه. ألبَسوه الحلّة الفاخرة الممتازة وهي المعمودية، والمعمودية هي الميلاد الثاني. نعتمد في المسيح فنلبس المسيح، فنصير أبناء الله بالتبنّي. ألبَسوه الخاتم ونحن نُختَم بالروح القدس عربون الحياة الأبدية. أما العجل المسمَّن فهو الرب يسوع، المسيح هو القربان المقدس.

وقامت في البيت الأفراح، فَهُمْ في عرسٍ، ونعرف من الإنجيل ايضاً أن الملك صنع عرساً لإبنه ودعى المدعوّين وذبح المسمّنات، والعرس في العهد الجديد هو عرس المسيح والكنيسة.

في رؤيا يوحنا، العرس هو عرس الحمل والحمل الفصحي هو الرب يسوع المسيح. على الصليب عقدَ يسوع عرساً معنا، عرس الكنيسة التي خرجَت من جَنبِه على الصليب بخروج الدم والماء كما خرجت حواء من جنب آدم. فالكنيسةُ هي مسحوبةٌ من جنبِ المسيح ونحن مسحوبونَ من جنب المسيح لأننا نحن الكنيسة. في الفصل 25 من إنجيل يوحنا، نرى العذارى العشر يخرجن للقاء العريس. الخمسُ الفاطنات دخَلنَ وأما الحمقاوات فلم يدخُلنَ وتبرّأ يسوع منهنّ. وفي مكانٍ آخر، نرى يسوع يقول لمقاوميه لا يستطيع أبناء العرس أن ينوحوا ويصوموا ما دام العريس معهم. ما دام العريس معهم فإنهم في فرح؟ مَن هو العريس؟ يوحنا المعمدان قال "الذي له العروس هو العريس" والعريس الله هو يسوع المسيح. فاذن الفرح كبير جداً جداً. فرح العرس، عرس المسيح.

ما هذا الإنسان العائد بعد ظلامٍ مبين؟ عاد الإبن الأكبر فاستغربَ الفرح والسرور والإحتفال الباهر، فاستدعى أحد العبيد فعرِفَ أنّ أخاه عاد فأقامَ له أبوه هذا العرس، فعاتبَ أباه قائلاً لم تعطني جدياً لأطرب مع أصدقائي وهذا الذي بذّر ثروتَك بالخلاعة تصنع له هذا الإحتفال؟ أجابه أبوه "كان عليكَ يا بنيّ أن تفرح لأن أخاك هذا، كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجد".

نحن هنا امام الواقع التاريخي الكبير وهو أن الإبن الكبير يمثّل الشعب اليهودي الحسود الغيور، والإبن المبذّر الخليع يمثّل أُمم الأرض التي إبتعدَت عن الله. في الفصل الأول من رسالة بولس الرسول الى أهل رومية، وصفٌ لحال البشرية البعيدة عن الله. غضَبُ الله معلنٌ عليها. تخلّى الله عنها فأسلَمها الى الفحشاء وكل الأعمال المنكِرة ويُعلِّل بولس الرسول هذه الأعمال المنكِرة الشنيعة.

سقطَت البشرية في شرورٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصى، وعاد الناس الى سادوم وعامورة وسوى ذلك من المخازي والعار. ولكن نرى بولس في الفصل السادس من رسالته الى أهل أفسس يعتبر عودة الأمم الى الله سِراً إلهياً أُعلنَ له. فبعد أن كانت الأمم بدون مسيح، بدون رجاء، بدون الهٍ في العالم، بدون الوعود، بدون المواطنية السماوية، قبلَها الله الآن وصارت شريكةً في الميراث لا بل صارت والمسيح جسداً واحداً. أهل بيت الله الذين كانوا من أصلٍ وثنيّ صاروا شركاء في كلّ شيء. في المجد، في النعمة في جسد يسوع المسيح، صاروا أهل بيت الله، صاروا مواطنين سماويين. عرفوا المسيح وآمنوا بالمسيح واشتركوا في نعمة المسيح. فبولس يذكر الأمور وكأنه متهللٌ ويعتبر ذلك أمراً عظيماً جداً، يعتبره سراً عظيماً جداً قد أعلنَه الله له. عودة الوثنيين الى الله أمرٌ عظيمٌ جداً. هلّل له بولس في أفسس وغير أفسس. ولذلك هذا الخليع يمثّل الأمم التي عادت الى الله، فاستقبلها الله وذبحَ لها العجل المسمّن فوُلِدَت في المسيح بالمعمودية ونالت الروح القدس عربون الحياة الأبدية ليُقدِّسها. واشتركت في دم الرب وأكلَت العِجلَ المسمَّن أي ربّنا يسوع المسيح وصارت أهلَ بيت الله. هذا المَثَل رائع. يُرينا الله في أقصى حدود الحنان على الجنس البشري وإن كان هذا الجنس قد تاهَ وضلّ. يرينا الله قابلاً توبة الأمم وعودَتهم. يُرينا الأمم المتَنصِّرة داخلةً في مجد الله عاقدةً مع الله عُرساً أبدياً في صليب ربّنا يسوع المسيح. هذا العرس العظيم هو مَوردُ فرَحٍ عظيم جداً. عادت الأمم الى الله فصارَ الله عريساً لها وصارت هي عروساً له. فاذن، إنتمَت الى الكنيسة والكنيسة هي جسد المسيح وعروس المسيح وهكذا الأمم الوثنية التي عادت الى الله صارت جسد المسيح.

ففي افسس 3 : 6 يستعمل بولس الرسول لفظة يونانية Sisoma اي أن الوثنيّين والمسيح صاروا جسداً واحداً. يخاطب بولس الرسول أهل افسس الوثنيين من موضعِ قوة. نحن اذن امام الحَسَد اليهودي وامام قبول الوثنيين بشارة المسيح. ونعرف من رسائل بولس وأعمال الرسل ما كَنَّه اليهود من حقد على بولس الرسول وعلى المسيحيين الأوّليّين، وكيف تآمروا على المسيح والمسيحيين وعلى بولس الرسول الذي يسمّيهم في رومية 11: 28 " أعداء الإنجيل". قاوموه وقاوموا المسيحية.

نعرف تاريخَهم، ونعرف كيف تآمروا علينا عبر التاريخ وأذونا كثيراً ولكن الله كان دائماً معنا. الإنجيل هنا يُرينا اليهود حَسودين غَيورين. والحسَد والغَيرة مرضٌ نفسيٌّ ينشأ في الطفولة ويستفحل في الكبَر، ولذلك على الأمهات أن يسعَين منذ الأشهر الأولى على مساعدة الأطفال على التخلُّص من الغَيرة والحسَد. في الغَيرة والحسد أنانية مُطلقة وبخل وحقد وكراهية وحب الأذى. بعض الغَيورين يؤذي جداً وخاصةً في الحياة الزوجية. الغَيور او الغيورة يُهلِك شريكه. الغَيرة مرضٌ عُضال واذا لم تتدارك الأمهات الأمر في الطفولة، عَثُرَ على الأطباء مداواة هذا المرض فيما بعد.

الغَيرة مرضٌ عام ولا يخلو الانسان من شيءٍ من الغَيرة، ولكن عند الناس فهي ظاهرة مَرَضيَّة حقيقية والشفاء عسيرٌ جداً لأنها تتأصَّل مع الزمن. فيبقى على الأمهات أن ينتبهنَ باكراً لتعويد الطفل على الإنفتاح والعطاء والحب وحُسن المعاشرة وحُسن المعاملة. الغَيور يؤذي، والأمهات تعرف غَيرة الأطفال وحب الأيذاء عند الأطفال. الغَيرة موجودة ولا نستطيع أن نُخفي الحقيقة. هي موجودة منذ الأشهر الأولى. بعض الغَيرة ضروريٌّ ولكن الأم الذكية تقدر أن تحوِّل هذه الغَيرة الى غَيرة مفيدة ومنافِسَة غير عدوانيَّة. المثل العام قال" اللي ما بيغار بيكون حمار" و " لولا الغيرة لما تزوَّجت الأميرة" . في هذا شيءٌ من الصحّ. فالغيرة المعتدلة الخالية من العدوانية والكراهيات ومحبة الأيذاء ومحبة العدوان تساعد المرءَ على الإجتهاد فيغارُ من إخوته ومن أصحابه فينافسُهم في الإجتهاد. فقدان الغَيرة مئة بالمئة قد يؤدي بالطفل والمراهق الى التواني والتنبلة والكسَل والتراخي، إنما الغَيرة تدفعه الى الأمام.

اذن، علينا أن نؤمِّن في التربية تخليص الطفل من السلبيّات لصالح الإيجابيات، من الإنفعالية الى الفعّاليَّة، من الكراهيَّة الى الحب واللطف والحلم والصبر وطول الأناة ورحابة الصدر والتواضع والرِفق والصبر والحنان وسوى ذلك من الفضائل من دون تشدُّد. من جهةٍ أُخرى من الضروري العناية بالجسد بالقدَر الضروري فقط، أما التدليل المفرَط فهو مؤذٍ ومخرِّب. المهم أن نعتني بجسد الطفل وحاجاتِه وعِلمِه بالقَدَر الضروري وما زادَ على ذلك فهو من الشرير. لا يجوز أن نجعل من الطفل إنساناً شهوانياً قبل الأوان، إنساناً جسدَنانياً قبل الأوان وانا لا أعني بذلك أن يصير شهوانياً فيما بعد، لا ولكن اذا دلّلناه كثيراً، صارت المشاعر الجسدية والحواس طاغيةً لديه. بطبيعة الحال في سن المراهقة والشباب سيعرف الإنسان إنتفاضة جسديَّة. هذه الإنتفاضة مخرِّبَة إن لم يكن الطفل قد نشأ ضابطاً نفسَه ومتسلِّطاً على ذاتِهِ وذا إرادة قوية نسبياً. طبعاً الطفل لا يتحمَّل الإرادة الفولاذية التي يتقمَّصها من والدَيه. كل الأمور تحتاج الى إعتدال الوالدَين، ولذلك دور الأمهات في البشر دورٌ أساسيٌّ والنشأةُ الروحية ترتبطُ بالأم. مَسلك الأم الأخلاقي والروحي في السنوات الأولى من العمر وربما الأربع من العمر يؤثِّر كثيراً على مَربى الطفل فهويتقمّص أمَّه ويتقلَّد أمَّه ولكن كلُّ شيءٍ بإعتدال.

من الضروري أن نُعوِّد الطفل باكراً على تقبيل الأيقونات، تقبيل الإنجيل والمناولة ورؤية الكنيسة. من المفيد جداً أن نرى الأم ساجدةً تُصلّي او ترسم الصليب. كل هذه الحركات تنغرس في ذاكرة الطفل فينشأُ متمسّكاً بالدين. ولكن كلُّ ذلك بحكمةٍ وإعتدال بدون إفراط، فمَسلك الأم مهمٌّ جداً. تأثير الوالدَين على الولد هو الذي يؤلِّف عنده نمط الشخصية، طِباع والدَيه تؤثِّر فيه ولذلك كلُّ ما يتعلّق بالطِباع هو مهمٌ لفائدة الطفل، أي أن تكون الطِباع جيدة وحسنَة الصبر تتحلّى بالقدرة على التحمُّل ورحابة الصدر.

إن إعتنَينا بالطفل بهذه العناية الإنسانية الجيدة، نشأ عطوفاً ثم شيئاً فشيئاً إبتلعَ المسيح بواسطة الإنجيل، بواسطة والدَيه ومسلِكِهما الإنجيلي الصحيحي السليم. الطفل الذي ينشأ في جوٍّ صامت لا اثرَ فيه للتأثير من الأهل، فهذا لا ينمو سليماً. الطفل البشري هو بحاجةٍ الى الأهل لتنموَ شخصيَّتُهُ. لا يصير فوتوكوبي عن الأهل ابداً بسبب الحرية فهو يتقمَّص أهلَهُ وسواهم ويتقمَّص سلبيّات أهلِه أكثر من إيجابياتِهم، وقد يُعاكس سلبيات أهلِه وايجابيّاتِهم وينفرد بشيءٍ آخر. قد يُفضِّل التقمُّص بسواهم عليهم.

الإنسان يُحيِّرنا بقدرته الهائلة على التنوّع. وكلّما تنوَّع، إغتَنَت شخصيَّته. وكلّما رحَّبَ صدرَهُ ليَسع البشر جميعاً والكون برمَّتِه، كلّما كانت آفاقه أوسع من هذا الكون. من أين نأتي برحابة الصدر؟ من اين نأتي بسِعَة العقل والقدرة على التحمُّل؟ بالبال الطويل وطول الأناة

وبالرِفق بالإنسان؟ كيف نصير قطعةً من الحنان على آلام الآخرين ومصائبهم؟ كيف يتفطّرُ القلبُ على أحزان الآخرين؟ كيف نستطيع أن نشارك الآخرين في أفراحِهم وأتراحِهم؟ كيف نستطيع أن نحب الآخرين اكثر من ذواتِنا وأهلَنا؟ كيف نستطيع أن نحب أعداءَنا بكلِّ قِوانا؟ أن نخدمَ أعداءَنا خدمةً بارّةً طاهرة كأن المسيحَ نفسَه قد حلّ فينا ليخدُمَهم.

ألَم يقل بولس الرسول "هذا الذي مات من أجلِهِ المسيح"؟ فالمسيح مات من أجل كلِّ إنسانٍ على وجه الأرض، فكيف لي أن احتقر هذا الإنسان الذي مات المسيح لأجلِه؟ فأين المسيح وأين المسيحيُّون. وضَعَنا المسيح على الرف. نسَيناه، نسَيناه ويا للأسف الشديد. المسيحية هي إتحادٌ بالمسيح. كيف أستطيع أن أتّحد بالمسيح وانا مُلتصق بشهواتي وملذّاتي وأهوائي إن لم أصلُب نفسي واصلُب شهواتي وأهوائي وأموت عن هذه الدنيا وأُصلَب مع المسيح. من أين لي ان أخرج من ذاتي وألتصق بيسوع المسيح وأكون معه واحداً، وأكون معه روحاً واحداً كما قال بولس الرسول.

أين المسيح وأين المسيحيُّون؟ على المسيحيّ أن يخرُجَ من ذاتِه ليُصبحَ مسيحاً آخر، ولكن كيف؟ كيف والبشر ملتصقون بجسدِهم وأهوائهم وشهواتهم.

ومع ذلك سنبقى نُعلِّم ونبشِّر بيسوع المسيح ونُطالب المسيحيّين بأن يصيروا مُسَحاء. انا صورة المسيح، فوتوكوبي عن ربِّنا يسوع المسيح. إن نجَحَت العملية أم إن لم تنجح فما علينا إلا السعي الحثيث، ويسوع هو الذي يتدبّر الأمور. هل تستطيع جهودي أن تصنع من إنسانٍ ما فوتوكوبي عن يسوع المسيح؟ لا جهودي ولا جهود غيري ولا جهود الملائكة تستطيع أن تصنع ذلك بدون الروح القدس. ولكن نحن أدوات الروح القدس، وعلينا كأدوات أن نعمل كأدوات، والروح القدس هو الذي يُكمِّل السعي. نحن نزرع وهو يُسقي ويُنمي. علينا أن لا نيأس، كلمة الله أمضى من كلِّ سيفٍ ذو حدَّين وهي سيفُ الروح القدس كما قال بولس الرسول. فاذن علينا أن نُلقي سيف الروح القدس وندع الروح القدس يعمل، ولكن علينا نحن في البَدء أن نُلقي هذا السيف أي كلمة الله. هذا السيف يتغلغل في النفس ويُقطِّع أوصال الخطيئة لينمو يسوع المسيح فينا حتى نَبلُغَ مِلءَ قامةِ المسيح له المجد والإكرام والسجود الى أبد الآبدين اذن، الآخر هو طريقي الى الله.

يوحنا الإنجيلي علّمَنا :كيف نستطيع أن نحبَّ الله الذي لا نراه إن كنا لا نحب أخانا الذي نراه.

الأخُ هو سُلّمي الى الله. هذا يعني اذن، إني لن أدخُلَ ملكوت السماوات إلا بواسطة البشر. البشر سلالم أصعد عليها الى يسوع المسيح. اذن عليَّ أن أخرُجَ من ذاتي لألتصق بالآخرين، وإن إلتصقتُ بالآخرين إلتصقتُ بربِّنا يسوع المسيح. المسألة عسيرة جداً لأنني أناني، لأنني حقود، حسود، غيور، مادي، بخيل، نرجسي، متمركز على حالِه. كيف أستطيع أن أُحطِّم كل هذه العقَبات لأصل الى يسوع؟ ما عليكَ إلا أن تسعى. فيسوع هو الذي يُكمِّل الناقصين ويعضد كل ضعيفٍ يلتجيء اليه. الطريق طويلٌ وشاق ولكن بيسوع المسيح كلُّ شيءٍ ممكن. هو الذي يرفعُنا اليه وما علينا إلا أن نسعى اليه لكي يُبادر هو الينا ويُقبِّلُنا كما قبَّلَ الإبنَ الشاطرَ ونحن ايضاً الإبنُ الشاطر، ولكن فلنثِق أن أبانا السماوي مستعدٌ دوماً لأن يهجُمَ علينا ويُقبّلنا.

نستفيد من مَثَل الإبن الشاطر، أنَّ الله هو طويل الأناة علينا. يسوع قَبِلَ اللص وأدخَله الفردوس، وقَبِلَ مريم المصرية وقَبِلَ خاطئين عديدين في هذا التاريخ وهو يُريدُ منا أن نُقبِلَ الى التوبة. لا يُريد هلاكَنا بل يُريد خلاصَنا وقد أتى الأرض ليُخلِّصَنا لا ليُهلكَنا، لا ليَدينَنا بل ليفتدينا بموته على الصليب. الذي مات على الصليب من أجلنا، ألا يكون أباً رحيماً حنوناً شفيقاً محبّاً للبشر يعطف علينا، يحنو علينا، يلطِف بنا؟

لُطف الله يقودنا الى التوبة لا الى الإستمرار والتمادي في الشرور. لا نعرف مقاصد الله ولذلك علينا أن نكون دائماً على أُهبَة الإستعداد لأننا لا نعرف متى يأتي اللص ويسرقُنا، أي علينا أن نكون دائماً مستعدِّين لملاقاة الرب لأننا لا نعرف متى يأتي.

باب التوبة مفتوحٌ لكل الناس. قَبِلَ يسوع الإبن الشاطر وقَبِلَ اللص، وقَبِلَ مريم المجدلية وقَبِلَ الزانية في نايين (لوقا7) والزانية في أورشليم وصدرُه رحب جداً، إنما رحابة صدرِه تدعونا الى التوبة. التوبة هي بابُ الفَرَج. متى عُدنا إستقبَلنا، وما علينا إلا أن نُزيح عن كاهِلنا الغضب الالهي، أن نُزيح عن كاهِلنا سادوم وعامورة وكل تواريخ الفساد في العالم.

في رؤيا يوحنا سقطت بابل الزانية، مملكة الشيطان سقطَت وستَسقط وستستمرُّ في السقوط. الشيطان يتحرك ولكنه أضعف من المسيح وأضعف من المؤمنين، ما على المؤمنين إلا أن يواجهوه بضراوةٍ تامة. علاقتُنا بالشيطان هي علاقةُ حربٍ، نحاربه باسم ربِّنا يسوع المسيح، نُحاربُه بإيماننا بيسوع المسيح، والغَلَبة هي بإيماننا كما قال يوحنا الإنجيلي.

الإنسان عليه أن يختار، عليه أن يختار يسوع أو أن يختار العار. ما من حلٍّ ثالث هنا. هنالك حلٌّ وحيد إما أن نكون أبناء الملكوت وإما أن نكون أبناء جهنّم، وحاشى أن نكون أبناء جهنّم ما دام الملكوت مفتوحاً أمامنا.

علينا أن ننسحق، أن نتواضع، أن نكفُر بملذّات هذه الدنيا، أن نلتصق بيسوع. فيسوع هو الرجاء، هو الأمل، هو رجاء المجد فينا كما قال بولس في كولوسي فلِنتمَسَّك بثقة الرجاء، ولنتعلّق بيسوع ولنعشَق يسوع بدلاً من أن نعشق الجسد والأرض. له المجد مع الآب والروح القدس الى أبد الابدين ودهر الداهرين آمين.

مُلحق تفسيري

من ميزات إنجيل لوقا التمهيد للموضوع، بينما يجمع متى الإنجيلي الأمورَ في ثلاثة فصول في الموعظة على الجبل بدون تمهيدات. لوقا طبيبٌ ماهرٌ وكاتبٌ يونانيٌّ متين. مهّدَ لمَثَل الإبن الشاطر بالنص التالي:

" وكان جميع العشَّارين والخطأة يدنون منهُ ليستمعوا اليه. فتذمَّرَ الفَرّيسيُّون والكتَبَة قائلين : " إن هذا يستقبل الخطأة ويأكل معه!"

فضَربَ لهم هذا المَثَل قائلاً :" أيُّ إنسانٍ منكم إذا كانَ له مئة خروف فأضاعَ واحداً منها، لا يترُك التسعة والتسعين في البريَّة ويمضي في طلَب الضّال حتى يجِدَهُ؟ فإذا وجَدَهُ حمَلَهُ على كتِفِهِ فرِحاً وأتى بهِ الى البيت ودعا الأصدقاء والجيران وقال لهم: إفرحوا معي فإنّي وجدْتُ خروفي الضّال! أقول لكم: إنه هكذا يكون في السماء فرَحٌ بخاطىءٍ واحد يتوب أكثر من تسعةٍ وتسعين صِدّيقاً لا يحتاجون الى التوبة".

في هذا المَثَل أمورٌ رائعة. الراعي العظيم هو يسوع المسيح، والخروف الضّال هو الإنسان، وأعلى الجبل هو السماء حيثُ الله والملائكة. يسوع طأطأ السموات ونزَلَ الى الأرض (العبرانيِّين 10) ليحمل الإنسان الساقط على منكبَيه. ومنكِباه هما الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية. له المجد، وضَعَنا في ذاتِه لذلك كما في الفصل الثالث من كولوسي نحن فيهِ وعن يمين الآب في السماوات. الفرحُ في السماء بخاطىءٍ يتوب أعظم من الفرح بتسعةٍ وتسعين لا يحتاجون الى التوبة. التسعة والتسعون هم الملائكة. آباء الكنيسة دخَلوا الى هذا السرّ العظيم، فقالوا: بالتجسُّد الالهي صِرنا اعلى من الملائكة لأن الملائكةَ كما قالَ بولس في العبرانيّين هم " أرواحٌ مُرسَلةٌ لخِدمة الذين يرِثون الخلاص". راجع ذلك في الصفحتَين 64-66 من كتابي " سرّ التدبير الالهي". ومن أهم القائلين بذلك المفَسِّر الكبير يوحنا فم الذهب.

هذه الصورة مملوءة من الحنان الالهي الذي يظهر في مَثَل الإبن الشاطر. الله أحبَّ الإنسان وأشفقَ عليهِ لدرجةٍ زرعَ معها الإنسان التائب في ذاتِه، فجعلَ التائبين المعتمِدين أعضاءً في جسدِه الذي هو الكنيسة. ألم يقل بولس الرسول إن الكنيسة هي جسد المسيح وإن المؤمنين المعتمِدين هم أعضاء في هذا الجسد؟ يا لروعة الإنجيل!